في بادية الشام

(٥)

دومة الجندل

دومة الجندل ويقال لها الجوف في ايامنا هذه ثم يطلق الجوف على مجموع القرايا التي قاعدتها دومة كما تطلق تونس على القاعدة والعمالة التونسية وكان العرب يطلقون على دومة وتوابعها كلة القُرَيَّات قال ابو عبيد الله السكوني : من وادي القرى الى تيماء اربع ليالٍ ومن تيماء الى القريات ثلاث او اربع والقريات دومة وسكاكة والقارة . وقد نقلت دائرة المعارف البستانية ما كتب العرب عن دومة الجندل وترجمت ما كتبتهُ عن الجوف غير عالمةٍ بانهُ ودومة الجندل شيءٌ واحد . ولنذكر بايجاز ما ورد عن دومة الجندل في مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع[1] وهو مختصر معجم البلدان للحموي قال : دومة الجندل بالضم ويفتح وانكر ابن دريد الفتح وعدهُ من اغلاط المحدثين . وجاء في حديث الواقدي دوما الجندل قيل هي من اعمال المدينة حصن على سبعة مراحل من دمشق بينها وبين المدينة قيل هي في غابط من الارض خمسة فراسخ ومن قبل مغربه عين تمج فتسقي ما بهِ من النخل والزروع وحصنها مارد وسميت دومة الجندل لانها مبنية بهِ وهي قرب جبلي طيّىء ودومة من القريات من وادي القرى والقريات دومة وسكاكة وذو القارة وهي دومة سور يتحصن بهِ وفي داخل السور حصن منيع يقال لهُ مارد وهو حصن اكيدر بن عبد الملك صاحبهُ النبي صلى الله عليهِ وسلم وامّنهُ وكان نصرانيًّا » اه

وكل ما ورد من الوصف صحيح فانها في غابط او جوف من الارض وبها عين تمج ومبنية بالصفّاح من الجندل واكثر القرى مبنية بالطين وشاهدنا انقاض سورها العظيم وحصنها المنيع الذي لا يزال البدو يلقبونهُ بمارد وهو مشيد على رابية علوها نحو عشرين متراً وعلوهُ نحو عشرين متراً ويقال ان نصفهُ الاعلى متهدم وانقاضهُ لا تزال حول القصر وسكان

---

(١) من هذا المختصر نسخة في دار الكتب السلطانية بمصر لم يذكر بها اسم المختصر ولا عرفنا دار الكتب وقد سألت عنهُ صديقي العلامة الفاضل انسيد احمد تيمور فقال لي لقد عثرت على اسمهِ في رحلة الشيخ عبد الغني النابلسي وهو عبد المؤمن الحنبلي فجزى الله الصديق عن العلم خيرًا

دومة اليوم من قبيلة السرحان وغيرها من قبائل بادية الشام ونجد . قال ابو عبيد الله السكوني دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّىء كانت بها بنو كنانة من كلب . ومما ورد في معجم ما استعجم للبكري طبع غوتنجن صفحة ٣٥٣ قولهُ : وبذلك ان دومة متصلة بدور بني سليم قول الكميت :

منازلهن دور بني سُليم فدومة فالاباطح فالشفيرُ

قال وبعث رسول الله (ص) جيشاً الى دومة وامَّر عليهم عبد الرحمن بن عوف وعممهُ بيدهِ وقال اغدُ بسم الله فجاهد في سبيل الله فقاتل من كفر بالله واكثر من ذكري عسى ان يفتح على يديك فان فتح فتزوج بنت ملكهم ففتحها وتزوج بنتهُ تماضر بنت الاصبغ فهي اول كلبية تزوجها قرشي فولدت لهُ ابا سلمة الفقيه وهي اخت الكلبيين بن المنذر لامهِ وكان افتتاح دومة صلحاً وهي من بلاد الصلح التي ادت الى رسول الله (ص) الجزية وكذلك اذرح وجرباء والبحران وايلة اه

قال ياقوت : واهل كتب الفتوح (والحديث كذلك) مجموعون على ان خالد بن الوليد رضي الله عنهُ غزا دومة ايام ابي بكر رضي الله عنهُ عند كونهِ بالعراق في سنة ١٢ وقتل اكيدر لانهُ كان نقض وارتدَّ وعلى هذا لا يصح ان عمر رضي الله عنهُ اجلاهُ وقد غزي وقتل في ايام ابي بكر . وقد روي ان اكيدر كان منزلهُ اولاً بدومة الجندل وهي كانت منازلهُ وكانوا يزورون اخوالهم من كلب وانهُ لمعهم وقد خرجوا للصيد اذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبقَ الاَّ حيطانها وهي مبنية بالجندل فاعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيرهُ وسمّوها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الجزيرة وكان اكيدر يتردد بينها وبين دومة الجزيرة فهذا يزيل الاختلاف . اقول ومما يؤيد هذه الرواية ما سمعتهُ في الجوف من نواف الاميريان مستشرقاً نمسوياً يبحث عن آثار الجوف فوجد حجراً منقوشاً عليهِ بلغة غير عربية فلا يبعد ان تكون نبطية كالكتابة التي وجدت في البتراء والرقيم من وادي موسى وفي الحجر . واستفدنا من هذه الرواية فائدة اخرى وهي غرس الزيتون فيها قديماً وهي اليوم عبارة عن روضة مغروسة بالنخيل وبها منهُ نحو سبعين الف نخلة يضرب بجودة ثمرها المثل ويزرع في تربتها الرملية الصلصالية الحنطة والشعير ما يكفي السكان ويزرع الدوميون او الجوفيون من الخضر الباذنجان والطماطم وبها صنف من القثاء يقال المراد انهُ منسوب الى العالقة لان طول الواحدة يبلغ متراً واكثر وقطرها نحو عشرة سنتيمترات وارضها قابلة

لزراعة سائر الخضر ولغرس الاشجار المثمرة وقد غرس الامير نواف بستاناً على طراز بساتين دمشق فيها نبع التفاح واللوز والجوز والمشمش ثم ذبلت اشجار البستان لجهل الفلاحين باصول البستنة

قال ياقوت وقد ذهب بعض الرواة الى ان التحكيم بين علي ومعاوية كان بدومة الجندل واكثر الرواة على انهُ كان باذرح . ولم اكثر الشعراء من ذكر اذرح وان التحكيم كان بها ولم يبلغني شيء من الشعر في دومة الأ قول الاعور الشني وان كان الوزن يستقيم باذرح وهو هذا :

رضينا بحكم الله في كل موطنٍ وعمرو وعبد الله مختلفانِ
وليس بهادي امةٍ من ضلالةٍ بدومة شيخا فتنة عميانِ
بكت عين من يبكي ابن عفان بعدما نفا ورق الفرقان كل مكانِ
ثوى تاركاً للحق مشيع الهوى واورث حزناً لاحقاً بطعانِ
كلا الفئتين كان حيًّا وميتاً يكادان لولا القتل يشتبهانِ

وقال اعشى بن ضور من عنزة :

ابلغ لنا ما بين بصرى ودومة كتائب منا يلبسون السنورا
اذا هو سامانا من الناس واحد لهُ الملك خلا ملكهُ وتقطرا
نفت مضر الحمراء عنا سيوفُنا كما طرد الليلَ النهارُ فأدبرا

وفي كتاب الخوارج مرّ عبدالله بن عيسى بن ابي ليلى مع ابي موسى الاشعري بدومة الجندل فقال حدثني حبيبي انهُ حكم في بني اسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور وانهُ يحكم في امتي في هذا المكان حكمان بالجور قال فما ذهبت الأ ايام حتى حكم هو وعمرو بن العاص فيها حكما قال فلقيتهُ فقلت لهُ يا ابا موسى قد حدثتني عن رسول الله (ص) بما حدثتني فقال الله المستعان

القول والآبار الواسعة لا تحصى في دومة كثيرةٌ وعمق البئر من سطح الارض الى سطح الماء بضع قامات وعمق الماء ايضاً كذلك وقطر فوهة البئر نحو خمسة امتار او اكثر فالماء غزيرة جدًّا تحت الارض يظنها المتخيل بحراً ولو نصبنا على هذه الآبار روافع الماء لاجرينا في دومة نهراً فان الماء ينزع اليوم بصنف من الدلاء الكبيرة يقال لها السواني وهي من اختراع العرب اسلافنا الذين برعوا في الفنون المالية البراعة كلها ولكثرة ما تنزعهُ هذه الدلاء في

الساعة من الماء اعتاد شعراؤنا المتقدمون والادباء ان يشبهوا الدموع بها فقالوا : دموع على مآقي كغروب السواني . قد نصبوا على كل بئر عدة بكرات كبيرة لرفع الغروب وكل غرب بحجم القربة يرفع بكرة . والغرب او الدلو مربوط بحبلين حبل من اعلاه وحبل من فم الدلو الذي يكون مرفوعاً والدلو ساعدة فاذا وصلت اعلى البئر ارتخى حبل الفم فنزل ما في الدلو من الماء . والقوة الرافعة في كل ساقية من السواني هو البعير يجر حبال بكرات الساقية نازلاً في ارض منحدرة حتى تصب الغروب ماءها في الساقية ثم يعود الى فوهة البئر والدلاء تعود الى سطح الماء وهلم جرًّا . وهذه السواني لا تزال مستعملة على شاطىء الفرات . وللناعمين بالسواني مطربات الاغاني . ولتمر الجوف شهرة ذائعة وهو ذو اصناف جمة لذيذ جدًّا لم اذق قبل ان رأيت الجوف في حياتي تمراً ألذ منهُ واظن ان النابغة كان في دومة اذ وصف التمر بقولهِ :

صفار النوى مكنوزة ليس قشرها اذا ظار قشر التمر عنها بطائر

كانت هذه القريات فيما مضى وقاعدتها دومة تابعة لامارة ابن الرشيد النجدية فحاربهُ الشيخ نواف بن الشيخ نوري الشعلان شيخ الرُّوَلة من عنزة سنة ١٣٢٦ هجرية وكان يومئذٍ الشيخ نوري في سجن سامي باشا الفاروقي في دمشق فكتب الى ابنهِ بتهديد الحكومة التركية ان يكفَّ عن مهاجمة الجوف فلم يفعل نواف ولم يرجع عن عزمهِ وسكت نحو سنة يهاجم دومة حتى فتحها عنوةً وصار من ذلك اليوم يلقَّب بالامير . وقد دافع عن امارتهِ دفاع الابطال واستتبَّ فيها الامن ونشر لواء العدل عليها . ويجلس كل يوم مقدار ساعة في مجلس عام يحضر فيهِ مئات من القرويين والبدو ويتحاكم امامهُ الخصوم فيحكم بينهم بالعرف البدوي وقد حضرت مجالسهُ العامة مرارًا دقّقت في احكامهِ فوجدتها موافقة للعقل والعدل والحق وكان يجيل من الاحكام للقاضي الشرعي ما يتعلق بهِ من الاحوال الشخصية . وقد كتبت لهُ بالقلم العريض : « اذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » فعلقها في مجلسهِ فوق رأسهِ . والامير نواف شديد التمسك بالدين فلا يترك الصلوات الخمس ويأمر قومهُ بها ويؤدي صلاة الجمعة في مسجد دومة الجامع القديم عهدهُ ويقال انهُ عمري بناهُ عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ ولا يزال كثير المساجد في صدر الاسلام مسقوفاً بالجريد ومفروشاً بالحصى . وللامير نواف ولع شديد بسماع العلم فقد قرأت لهُ شيئاً كثيراً من التاريخ والحديث وقضيت ليالي في قراءة الف ليلة وليلة وغيرها من اخبار العرب واشعارهم وقرأت لهُ مرة قصيدة

عمرو بن كلثوم المعلقة فكان يتمايل طرباً لمعانيها لاسيما ما يتعلق بالحماسة و يلتفت الى حاشيته قائلاً : « اسمعوا ايش تقول اجدادنا العرب » وكنت اسأله عن كثير من الكلمات اللغوية فيجيبني بلا تردد عن معانيها لان البدو لا يزالون يستعملونها مثل رحى وثقال وظهرة وقرى من قول ابن كلثوم :

متى ننقل الى قوم رحانا يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثقالها شرقي نجد ولُهرتها قضاعة اجمعينا
نزلتم منزل الاضياف منا فاعجلنا القرى ان تشتمونا
الا لا يعلم الاقوام انّا تضعضعنا وانّا قد ونينا
الا لا يجهلن احد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولقد كان يهتز لروي كل بيت و يقول : اي بالله !

و يطبخ الامير قهوته على نار الغضا التي تضارع بحرارتها ومدة دوامها فحم السندیان في ديارنا وتقوته بمدم دخانها ورائحتها ويعطر قهوته بالعنبر يضعهُ في اسفل الفنجان . وللبدو قصائد طويلة في وصف القهوة ومدحها وهم يتفنون طبخها حد الاتقان بحيث تغني الرشفة عن رشفات من قهوتنا او بالحري من القهوة المدنية

ومن اهتمام الامير بشؤون امارته ان بعض بيوت من بدو عنزة كانت نازلة على العبد فبينهم ركب من شمّر وغزاهم ليلاً ونهب جمالاً لهم فما وصل الصريخ الى الجوف في منتصف الليل حتى ركب الامير بنفسهِ وحاشيتهِ على الرغم من الاخلاد عليهِ بالاستراحة حفظاً على نفسهِ ولم يعد الاّ ثاني يوم ولولا انهم اشاعوا الاثر لفتكوا بالمدو واعادوا المنهوب وهكذا كان لسان حاله لسان سلامة بن جندل القائل :

انا اذا ما اتانا صارخ فزع كان الصراخ لهُ قرع الظنابيب

« للرحلة صلة »

عز الدين آل علم الدين
التنوخي